

# الإسلام نظام عالمي

## للأستاذ عباس خضر

النهضة الأوربية بمزلة عن الحياة الدينية بعد أن اجتازت دور الصراع بينها وبين الكنيسة ، ذلك الصراع الذي انتهى إلى جعل الدين في وضع سلاحي يتفق مع مبادئ المسيحية التي تنحصر في شائر العبادة والنهذيب الروحي وتدعم ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، ولم نهم بأن نلأم بين نهضتنا الحديثة وبين شريعتنا الإسلامية ، وساعد على ذلك جهود علماء الإسلام ونفورهم أو توجيههم الشر من دخول الحضارة الأوربية إلى حياتنا ، وكان التيار - ولا يزال - جارفاً ، ولم تكن مقاومته مستطاعة ، ولم تكن من الخير لتقدمنا ، وكان الخير كله أن نتقبل ونقبله إلى ما بواقفنا ، وكان هذا يقتضي نشاطاً عقلياً متجدداً ، وكان أيضاً يقتضي جواً من الحرية خالصاً من أغراض الاستعمار

ولندع ما كان وما كان يمكن أن يكون ، لنعود إلى ما جرتنا إليه ، وهو تقليد الأوربيين في التفرقة بين الدين والمجتمع . الحقيقة التي يعرفها كل متبصر في الإسلام أن هذا الدين نظام كامل للحياة من نواحيها المختلفة ، وهو ينظر إليها على أنها « مركب » - كما يدبر الكيماويون - فليس هناك ناحية روحية منفصلة من ناحية مادية ، وليست هناك سلطة زمنية لا تعرف الدين إلا على سبيل التبرك به ، وليس الدين رجال مميون دون سائر السالمين ، فكل مسلم رجل دين ، وقد جرى المجتمع الاسلامي - قبل تقليد الأوربيين - على تسمية الدارسين للشريعة الاسلامية بأسماء مختلفة ليس من بينها « رجال الدين » كانوا : أئمة ، علماء ، فقهاء ، الخ وكان لفظ « الاسلام » لا « الدين » هو الذي يطلق غالباً على هذه الشريعة الكاملة التي تشمل نواحي الحياة جميعاً ، كما تطلق الآن كلمة « الديمقراطية » أو « الاشتراكية » أو « الشيوعية » لتدل على مبادئها ووسائلها في تنظيم الحياة

كنا إذن « إسلاميين » ثم تحولنا عن « الاسلامية » في أكثر نظمنا السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وأرضينا ضميرنا الديني أو خدعناه بأنه يكفي لاسلامنا أن تؤدي بعض الشماز ونمضغ للكثير من الأباطيل والخرافات التي تلبس بشماز الدين ، وضر بنا سوراً حول المشتغلين بالدراسات الاسلامية وعرفناهم بزي خاص وسياها معينة وسميهم روحانيين ثم سميوا أنفسهم « ديمقراطيين » وأخيراً حللنا لفظ « الاشتراكية » فأنجذناه أو ادعيناها كما

شاع بيننا - منذ غزتنا أوروبا بمحوشها وحضارتها - أن الحياة الدينية شيء آخر غير الحياة العملية ، وحرص النزاة على أن يقرروا هذا الوم في نفوسنا ، وأردنا نحن ذلك وسمينا إليه وعملنا له ، عند ما رأينا الحياة الأوربية نفسها قائمة على ذلك الوضع ، إذا بدالنا أن نهض كما نهضت أوروبا ، وقد قامت



وأصبحوا تيماً<sup>٥</sup> للأجنبي ، فإ وكان بالأمس حب الله يجمعهم ، وذى فلسطين أولى القبلتين ، اقد والشعب - واحرباً للشعب ساعة قد باع تقواه بالدنيا ، وقال لها : ياسيدي ، يا نجي الله ، روعنا وامتد بالرب ليل الثائبات ، أما وطال منا السرى في مهمه درست فاشفع فإنك أدنى المرسلين إلى ويرجع المزم مقود اللواء لنا واكلاً عليك صلاة الله ، أمتنا

مورج سلسقي

بيروت

٥ ( التبع : جمع تابع كخادم وخدم  
٦ ( الصوى : جمع صوة وهي الحجر يكون مادياً للسافر ينشئ عن الدليل  
ومسجور : فارغ ، ساكن - والورد .  
٨ ( المستجر : الكتمل ، والفام الذي لا يتعلم

الذي يعرف مدخله ومخرجه ؟ قال : لا . قال : كنت رفيقه في السفر الذي يستدل به على مكارم الأخلاق ؟ قال : لا . قال : أظنك رأيته قائماً في المسجد بهمهم بالقرآن ، يخفض رأسه نارة ويرفمه أخرى ؟ قال : نعم . فقال : اذهب فليست تعرفه . وقال للرجل : اذهب فانتني بمن يعرفك

هذا هو الإسلام في حقيقته ، يحض على العمل ، ويقدر القيم بالنتائج العملية ، ويعرف أقدار الناس بأعمالهم وسلوكهم في المجتمع لا بظاهر النسك والعبادة . وهو يقيس هذه الأقدار أيضاً بكيفيات أصحابها وما يحسنون من أعمال . كتب أبو بكر إلى أبي عبيدة ما يلي :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله بن أبي قحافة إلى أبي عبيدة بن الجراح . سلام الله عليك ، أما بعد فقد وليت خالداً قتال العدو في الشام ، فلا تخالفه واسمع له وأطع ، فإن وليته عليك وأنا أعلم أنك خير منه وأفضل ديناً ، ولكن ظننت أن له فطنة في الحرب ليست لك ، أراد الله بنا وبك سبيل الرشاد »

وهكذا فرق أبو بكر بين الورع والتقوى وبين الكفاية الحربية ، وهو في ذلك يصدر عن روح الإسلام العملية ، فهو مع إكباره لأبي عبيدة وتقديره لديانته وتقواه ، يحدد العمل لمن يراه أهلاً له وأقدر على القيام به ، وهذا يدل على أن رجال الحكومة في الإسلام لا يصطبغون بالصبغة الدينية المقدسة ، فإن الإسلام يقضى بأن يتولى الأمر من يحسنه لا من هو أعلم وأتق ، ومن هنا تبطل دعوى من يصف الحكومات الإسلامية بأنها دينية لا تصلح للقيام بالأمر ، لأنها تصلح بالقداسة الدينية وتمنعها على النقد

وذلك لأن الحكومة التي تسير على نهج الإسلام لا تتصرف بالصفة الدينية على النحو الذي يصفونه ، وإلغاهي حكومة تستمد سلطتها من الأمة لا من حق إلهي ، وتمثل بمرقبة من الأمة ، وكلنا يعلم ما قاله عمر بن الخطاب ، وهو واقف على المنبر : من رأى في اعوجاج فليقومه ، ورد أحد المسلمين عليه بقوله : والله يا عمر لو رأينا فيك اعوجاجاً لقمناه بحمد سيوفنا

أما التكافل الاجتماعي بين الناس فقد بلغ فيه الإسلام الغاية حتى إنه جعل الأمة الإسلامية كلها جسماً واحداً ، قال النبي صلى

أديننا الديمقراطية من قبل وانفرض أننا الآن أردنا أن نمود إلى الإسلام عمناه الحقيقي الكامل ، مع استمرار سيرنا في ركب الحضارة العالی ، فهل يمكن ذلك ؟ وماذا ينبغي أن نفعل ؟ اعتقد أولاً أنه لا يقف في سبيل ذلك إلا فهمنا المخطئ للحقيقة الإسلامية ، وأول شيء هو أن نصلح هذا الخطأ في عقولنا ، ثم نعمل بمقتضى هذا الإصلاح

والعجيب أن كثيراً منا يدافعون عن الإسلام بما لا يجعله صالحاً لسيرة التقدم الانساني ، فيثلبون النظم الثورية لأنها مادية وأما نحن فقد صفت قلوبنا من المادية لأننا روحانيون . فهل نحن كذلك ، أو هل ينبغي لنا أن نكون كذلك ؟ لقد أثرت فيما تقدم إلى أن الإسلام ينظر إلى الحياة كوحدة كاملة ، حياة تحورها الضرورات المادية ويحكمها الضمير أو الوازع الذي ينظم التكافل الاجتماعي ويربطه برابط مكين

إن الإسلام لم يهمل الجانب العملي في الحياة ، بل حث عليه ودعا إليه ، قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسسوا إلى ذكر الله وذروا البيع . ذلك خير لكم إن كنتم تعلمون . فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله » وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده »

بل إن الإسلام قدم الجانب العملي في الحياة على الجانب التمبدي ، ورفع الأول على الثاني في بعض المواطن . روى أنس : كنا مع النبي في سفر ، فثنا الصائم ومنا الفطر ، قال : فثنا منزلاً في يوم حار ، أكثرنا ظلاً صاحب الكساء ، فثنا من يتق الشمس بيده ، قال : فقط الصوام ، وقام المفطرون فضربوا الأبنية وسقوا الركاب ، فقال الرسول صلوات الله عليه وسلامه : ذهب المفطرون اليوم بالأجر كله

وذكر للنبي صلى الله عليه وسلم رجل كثير العبادة فقال : من يقوم به ؟ قالوا : أخوه . قال : أخوه أعبد منه

وشهد شاهد عند عمر بن الخطاب ، فقال : انتني بمن يعرفك ، فأنابه برجل ، ما نبي عليه خيراً ، فقال له عمر : أت جاره الأول